(الإسلام دعوة الله للعالمين)

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيهِ ونَسْتَغْفِرُهُ ونَتُوبُ إلَيْه ، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا ، مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ومَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، ونَشْهَدُ أنْ لاإلَهَ إلاَّاللهُ وَحْدَهُ لاشَرِيكَ لَهُ القائل : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) ونَشْهَدُ أنَّ سيدنا ونبينا مُحَمَّدًا عَبْدُه اللهِ ورَسُولُهُ القائل : (مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين) .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا ، وبعد فيقول الله تعالى :

(يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

عباد الله : أليس عجيبا وغريبا أن تكون أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي أمة العلم فى مؤخرة الركب العلمي إلا من رحم الله!!!

فقد كانت أول صيحة للإسلام تأمر بالقراءة والكتابة وتنوه بقيمة القلم فقال تعالى :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

• فمنذ أن أمر الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجهر بالدعوة بقوله : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) وبقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...) والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريص على تبليغ الدعوة للعالمين!!! فأرسل رُسُله بعد صلح الحديبية إلى هرقل الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى المقوقس بمصر وإلى النجاشي بالحبشة ، فمنهم من أسلم كالنجاشي ، ومنهم من ردَّ ردًا حسنا كهرقل والمقوقس ومنهم من جاهر بالكفر ككسرى ثم حَمَل راية الدعوة بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابُه رضي الله عنهم ففتحوا الشام ومصر والأندلس وغيرها ، ثم تأسّى بالصحابة واقتدى بهم التابعون والمجاهدون ، والعلماء فى كل عصر... فارتفعت راية الإسلام عالية على ممالك كسرى وقيصر وفوق ربوع أفريقيا والهند والصين والشرق والغرب ليتحقق بذلك قول الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

• وإذا كان الله قد خص طائفة من المؤمنين لتبليغ الدعوة كما قال : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ويقول (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ...) إلا أن سلوك المسلم ومعاملاته فى كل مكان خير عنوان لتبليغ دعوة الله للعالمين ولم لا ؟ فكما قلنا فى لقاء سابق : إن تحصيل العلم من حق الجميع بغض النظر عن كونه يعمل فى مجال العلم أم لا ؟ فهذا رجل ذاع صيته وانتشر علمه فى كل مكان مع أنه كان تاجرا للصوف والحرير هو الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه ، فكان الناس يقصدون متجره فيرون فيه الصدق في المعاملة والأمانة في البيع والشراء فأما مثال البيع : في يوم جاءته امرأة تطلب ثوبا فلما أتى لها بالثوب قالت له : لاعلم لي بالأثمان فبعني الثوب بالثمن الذي اشتريته وأضف إليه قليلا من الربح فإني فقيرة فقال لها : إني اشتريت ثوبين في صفقة واحدة ثم بعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم فخذيه بالأربعة دراهم ولا أريد منك ربحا!!! .

• وأما مثال الشراء : جاءته امرأة بثوب من حرير تبيعه فقال بكم تبيعينه ؟ قالت : بمائة قال : هو خير من ذلك! فزادت مائة فقال : هو خير من ذلك! فزادت مائة حتى أربعمائة ، قال : هو خير من ذلك! قالت : أتهزأ بي ؟ قال : هاتي رجلاً يقومه فجاءت برجل فاشتراه أبوحنيفة بخمسمائة ، لقد وضع الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه أمام عينيه قول شعيب عليه السلام لقومه كما أخبرنا ربنا :

(...فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

• وكان لأبي حنيفة رضي الله عنه شريك فكان يرسله بالحرير إلى الأسواق... ففى يوم جهز له بضاعة وأعلمه بعيب فى ثوب وقال له : بعه بكذا وبين للمشتري ما فيه من عيب فباع شريكه الثوب ونسي أن يعلم المشتري بما في الثوب من العيب... فلما عرف بذلك أبوحنيفة بحث عن الذى اشتراه فلم يجده فماذا فعل ؟ فأخرج أبوحنيفة ثمن البضاعة كلها مابين زكاة وصدقة!!! وكان من جوده وكرمه رضي الله عنه أنه كان إذا أنفق نفقة على عياله وأهله أنفق مثلها على المحتاجين ، وإذا اكتسى ثوبا كسى بمثل ثمنه الفقراء .

• نعم لقد كان كثير من العلماء تجارا فكان صدقهم فى المعاملة وأمانتهم فى البيع والشراء سبيلا لاعتناق الإسلام فيقول أحدهم وهو : غَالِبُ الْقَطَّانُ أَتَيْتُ الْكُوفَةَ فِي تِجَارَةٍ فَنَزَلْتُ قَرِيبًا مِنَ الأَعْمَشِ فمن الأعمش ؟ هو هو سليمان بن مهران من علماء القرن الثانى للهجرة عاصر أبا حنيفة وغيره فكان أقرؤهم لكتاب الله وأحفظهم للحديث وأعلمهم بالفرائض وقيل : كان أعبد الناس ظل سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى مع الجماعة!!! يقول هذا التاجر : غَالِبُ الْقَطَّانُ ففى لَيْلَةٍ قَامَ الأَعْمَشُ فَتَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ فَمَرَّ بِهَذِهِ الآيَةِ :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ)

فَقَالَ الأَعْمَشُ : وَأَنَا أَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ اللَّهُ بِهِ!!! اللهم إنى أَسْتَوْدِعتك هَذِهِ الشَّهَادَةَ وَهِيَ لي عِنْدَك وَدِيعَةً لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ قَالَهَا مِرَاتٍ... قُلْتُ : لَقَدْ سَمِعَ فِيهَا شَيْئًا فَلما غَدَوْتُ قُلْتُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنِّي سَمِعْتُكَ تُرَدِّدُ هَذِهِ الآيَةَ ؟ قَالَ :

أوَ ما بَلَغَكَ مَا فِيهَا ؟ قلتُ : أنَا عِنْدَكَ مُنْذُ شَهْرٍ فلَمْ تُحَدِّثْنِي فسكت فلازمته سَنَةً ، فلَمَّا مَضَتِ السَّنَةُ قلْتُ : يَا أبَا مُحَمَّدٍ! قدْ مَضَتِ سَنَةٌ ولَمْ تُحَدِّثْنِي! فقالَ...قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إنَّ عَبْدِي قدْ عَهِدَ إلَيَّ عَهْدًا وَأنَا أحَقُّ مَنْ وَفَى بِالْعَهْدِ أدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ)

وقد يتعجب أحدنا ويقول : يحبسه سنة ليعطيه ما فى الآية الكريمة!!! نعم لتروا كيف كان العلماء يربون طلابهم على أن تحصيل العلم ليس سهلا!!! ومن العلماء من فعل ذلك فهذا ثَوْبَانُ بنُ إبْرَاهِيْمَ ويكنى بذى النون المصرى شَيْخُ الدِّيَار المِصْرِيَّةِ في القرن الثالث الهجري قصده طالب علم من مكة ليتعلم منه اسم الله الأعظم يقول الطالب : فلازمته سنة حتى رأى منى ماطمأنت إليه نفسه من خلق وحرص على العلم ثم قلت له بعد ذلك : يا أستاذى أنا رجل غريب وقد اشتقت إلى أهلي وقد خدمتك سنة وقد رأيت منى ماطمأنت إليه نفسك من خلق وحرص على العلم ، وقد قيل لي إنك تعرف اسم الله الأعظم فإن كنت تعرفه فعلمني إياه قال : فأومأ برأسه ولم يجبني بشيء فعلمت بأنه سيعلمني إياه ، وبعد ستة أشهر من يوم مسألتي إياه قال لي :

يا أبا يعقوب! ألا تعرف فلاناً صديقنا بالفسطاط الذي يجيئنا ؟ فقلت : بلى! قال : فأخرج إلي من بيته طبقاً مغطى ومشدودا عليه بمنديل فقال لي : أوصل هذا إليه بالفسطاط... قال : فأخذت الطبق فإذا هو طبق خفيف يدل على أن ليس في جوفه شيء فلما بلغت الجسر الذي بين الفسطاط والجيزة قلت في نفسي : لأبصرن أي شيء فيه ؟ قال : فحللت المنديل ورفعت الغطاء فإذا فأرة قد قفزت من الطبق فاغتظت وقلت : إنما سخر بي ذو النون فجئت إليه وأنا مغضب فلما رآني تبسم وعرف القصة وقال : يا مجنون ائتمنتك على فأرة فخنتني...أأتمنك على اسم الله الأعظم ؟ قم عني فارتحل ولا أراك بعد هذا أبدا !!! فمن كلام ذى النون رحمه الله : ما طابت الدنيا إلا بذكر الله ، ولا طابت الآخرة إلا بعفو الله ، ولا طابت الجنان إلا برؤية وجه الله الكريم فاللهم اجعلنا من الذاكرين!!! .

• فالعلم يا عباد الله لا يميز بين ذكر وأنثى ولا بين كبير وصغير فرب صغير يفوق الكبير فصاحة وإداركاً ، فقد ترى عالما فى صورة طفل يتكلم بالحكمة ومن أمثلة ذلك :

أولا : الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذى كان يحضر مجالس كبار الصحابة وكان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يستشيره فى بعض الأمور .

ثانيا : والحسن بن الفضل وهو من علماء القرن الثالث للهجرة كان أعلم علماء عصره فى معاني القرآن الكريم ، عندما كان صغيرا دخل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم وأراد الكلام قال له الخليفة : ياصبي مثلك لايتكلم فى هذا المقام!!! فقال يأميرالمؤمنين : إن كنت صبيا فلست أصغر من هدهد سليمان ولست يا أمير المؤمنين أكبر من سليمان حين قال له الهدهد : (أَحَطتُ بِما لَم تُحِط بِهِ وَجِئتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) ثم قال الصبي : ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داوود أولى!!! ؟ فقال له : صدقت ثم أذن له فى الكلام .

ثالثا : عندما جاء وفد الحجاز يهنئون عمر بن عبد العزيز بالخلافة كان من بين الوفد صبي فلما أراد أن يتكلم فقال له عمر ابن عبد العزيز : ياغلام يتكلم من هو أسن منك فقال يا أمير المؤمنين : لو كان الأمر بالكبر لكان فى مجلسك من هو أولى منك بالخلافة فقال : صدقت تكلم ياغلام ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك ، فأما عدم الرغبة فقد رضينا خلافتك ونحن فى ديارنا ، وأما عدم الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام ، فقال له عمر : ياغلام عظنى فقال : يا أمير المؤمنين : إن أناسا غرهم حلم الله عنهم وثناء الناس عليهم فلا تك ممن يغتر بثناء الناس فتزل قدمك بعد ثبوتها وتكون ممن قال الله فيهم : (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) فبكى عمر رضي الله عنه وأثنى عليه .

رابعا : وهذا درواس بن حبيب وهو من علماء القرن الثالث للهجرة عندما دخل مع قومه على هشام بن عبد الملك يطلبون منه نفقة وعونا هابوه ولم يتكلموا!!! فلما أراد درواس الكلام غضب هشام وقال لحاجبه : تدخل كل من أراد الدخول علي حتى الصبيان ؟ فعلم درواس بأنه المقصود فقال على استحياء يا أمير المؤمنين : إن للكلام طيا ونشرا...وإنه لا يعرف مافى طيه إلا بنشره فإن أذن لي أمير المؤمنين بنشره نشرته!!! فأعجب الخليفة بكلامه وقال له : أنشره ياغلام فقال يا أمير المؤمنين : لقد أصابتنا سنون ثلاث...سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفى أيديكم فضل مال فإن كان لله فأطعم به عباده ، وإن كان لهم فلم تحبسه عنهم ؟ وإن كان لكم فتصدق به عليهم فإن الله يجزى المتصدقين ، فقال هشام : ماترك الغلام لنا فى واحدة من الثلاث عذرا فأمر هشام للقوم بعطاء حتى كفاهم وأغناهم!!! .

• فالمسلمون أمة واحدة قال تعالى : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) فهل المسلمون اليوم كالجسد الواحد ؟ لقد كانوا من قبل عندما كانوا متمسكين بدينهم كانت لهم الصدارة والقيادة ، فلما تركوا العمل بدينهم ردَّهم الله من مكان الصَّدارة إلى التابع فى ذيل القافلة ، وسهل على أعدائهم القضاء عليهم واحتلال بلادهم ، وسيظلون هكذا ما داموا متفرقين وبعيدين عن منهج الله!!!وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

(كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)